

بَيْنَ الْمَحْرَابِ وَالْمِيدَانِ

هَنْدَسَةُ الْمَعْنَى وَفَقَهُ الْعُدُولِ
فِي سُورَتِي مَرْيَمَ وَطَهْ

دِرَاسَةٌ مُقَارِنَةٌ فِي تَشْكِيلِ الصُّورَةِ الذَّهْنِيَّةِ وَهَنْدَسَةِ الْمَشْهَدِ الْقُرْآنِيِّ



م. رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بَيْنَ الْمِحْرَابِ وَالْمِيدَانِ: هَنْدَسَةُ الْمَعْنَى وَفَقْهُ الْعُدُولِ فِي سُورَتَيْ مَرْيَمَ وَطه

دِرَاسَةٌ مُقَارَنَةٌ فِي تَشْكِيلِ الصُّورَةِ الذَّهْنِيَّةِ وَهَنْدَسَةِ الْمَشْهَدِ
الْقُرْآنِيِّ

رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الأول: فقه العدول وتحولات

الصيغة في سورة مريم

[المقدمة]

لا يتحرك الحرف القرآني داخل نسقه النظمي طلباً لمجرد التزيين البياني أو الزخرف الإنشائي، بل يمثل معماراً دلالياً مشحوناً بالقصدية؛ حيث ترتبط كل بنية لغوية بحركة الشعور وأبعاد

المشهد الذي ترسمه في الوعي. وإذا كانت
البلاغة الكلاسيكية قد نظرت إلى «العدول»
نخروج عن مألوف التركيب وظاهر اللفظ،
فإن التدبر الموضوعي العميق يفرض التعامل معه
بوصفه «هندسة إدراكية استثنائية»؛ انزياحاً
وظيفياً يكسر أفق الانتظار المعياري لدى المتلقي
ليفجر دلالات لا تطيق الصيغة الباردة حملها.

تجلى سورة مريم كميدان تطبيقي فريد لمقاربة
«فقه العدول»؛ إذ تتأسس بنيتها الكلية على

مفارقة الوهن البشري والقدرة الإلهية المطلقة،
وتمتزج فيها أرقّ نفحات الرحمة والهمس
التعبدى بأعلى درجات الارتجاج الكوني عند
مواجهة الشرك. ومن هذا المنطلق، لا تأتي
تحولات الصيغة فيها—سواء الصرفية، أو
الإسنادية، أو الزمنية، أو حتى النغمية الصوتية
—إلا لتكون بمثابة توجيه لبؤرة العدسة في
الوعي الإنساني؛ لتحويل التجريد إلى تجسيد

حسي باذخ، ونقل القارئ من مقعد السامع
السلي إلى فضاء المعاينة الحية.

[إشكالية البحث وتساؤلاته]

تطلق الدراسة من السؤال المركزي:

«كيف يسهم العدول عن الصيغ المعيارية في

سورة مريم في بناء مشهدية الحدث وتشكيل

الصورة الذهنية لدى المتلقي؟»

ويتفرع عنه:

١. ما دلالة العدول الإسنادي في التعبير عن

الضعف الفسيولوجي والنفسي لدى الأنبياء؟

٢. كيف يسهم العدول عن حروف ومفردات السرد المألوفة في تجسيد العزلة والقداسة (انتباز مريم نموذجاً)؟

٣. بأي آليات يُحدث العدول الزمني (الماضي مكان المستقبل) حسماً وجودياً في حوارات الإعجاز؟

٤. كيف يعيد العدول الفاصلي الصوتي رسم الفضاء النفسي من هدوء الخلوة والرحمة إلى ارتعاد الأكوان؟

المبحث الأول: العدول الصرفي
والإسنادي وتجسيد الهشاشة الوجودية
المطلب الأول: حريق الشيب وعصف
الشيخوخة في ﴿وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾

حين يقف العبد بين يدي خالقه مستجدياً ما
جاوز سنن الطبيعة وقوانين المادة، تسقط
الصياغات التقريرية الباردة؛ إذ لا تملك لغة
الأخبار المعيارية أن تنهض بحمل الرجفة الكامنة

في صدر نبيّ بلغ من العمر عتياً. في الاستعمال
اللغوي المؤلف، يقال: «شاب رأسي»، أو
«انتشر الشيبُ في شعري»، وهي تراكيب
تصف حدثاً بيولوجياً متدرجاً، محايداً، يخلو من
أي شحنة تصويرية تفصح عن عمق الهدم الذي
أصاب الجسد.

بيد أن النظم القرآني يمارس هنا عدولاً إسنادياً
وتركيبياً بالغ الدقة؛ إذ يُخرج التركيب من قلبه
القياسي (شاب الرأس / اشتعل شيبُ الرأس)

ليجعل «الرأس» بكيته وكتته هو الفاعل المباشر
لفعل «الاشتعال»، ثم يُرجى كلمة «شيباً» لتأتي
تميزاً منقولاً عن الفاعل. هذا الانزياح التركيبي
يفجر دلالة لا يمكن للغة التقرير أن تبلغها،
فالاشتعال في أصل الوضع الفيزيائي حركة نارية
مباغته، لا تبقي ولا تذر، تتغذى على الهشيم
وتستحوذ على الحيز بسرعة فائقة.

عندما يُسند الاشتعال إلى الرأس، لا يعود
الشيب خيوطاً بيضاء تجاور سواداً، بل يتحول

الرأس في خيال المتلقي إلى موقدٍ استعر دفعة واحدة. تحول التمييز «شيباً» إلى بؤرة بيان بعد إبهام الاشتعال يصنع صدمة بصرية: إن هذا الحريق الذي استولى على قمة الجسد ليس ناراً محرقة تفتى بها المادة، بل هو «نار البياض»، حريق الشيخوخة البارد الذي التهم سواد الفتوة وترك الهامة رماداً مضيئاً بالوهن.

الصورة الذهنية المتشكلة هنا تتجاوز المظهر الخارجي إلى تصوير انكسار الزمن على عتبة

الجسد؛ فالشيب الذي اشتعل في الرأس هو امتداد طبيعي لقوله قبله: ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾. فإذا كان العظم—وهو عماد البنية التحتية للجسد البشري وأصلب ما فيه—قد تآكل من الداخل وخوى، فإن أعلى قمة في هذا البنيان (الرأس) قد توهجت من الخارج بلهب الفناء. يكتمل المشهد بصرياً وشعورياً: نبيٌّ يقف وقد نخره الزمان باطناً، واشتعل رأسه ظاهراً، ليصنع بهذا العدول التعبيري التوطئة الوجدانية التامة للسؤال

المستحيل: كيف يُبعث الحيّ من رحم هذا
الرماد؟

المطلب الثاني: مطاوعة العزلة والانخلاع
عن العالم في ﴿فَانْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا
شَرْقِيًّا﴾

في مشهد التحول الأعظم في حياة الصديقة
مريم، لم يقل السياق «اعتزلت أهلها»، ولا
«خرجت إلى مكان في الشرق»، ولا «ذهبت
للتعبد»، بل وقع الاختيار على لفظة مشحونة
بحركة الانفصال التام: ﴿فَانْتَبَذَتْ﴾.

العدول هنا يتأسس على الجذر المعجمي (ن-
ب-ذ)، الذي يدل في أصله الواقعي على طرح
الشيء وإلقائه بعيداً لقلّة المبالاة به أو لإخراجه
نهائياً من حيز الاستعمال والاهتمام. وحين
يُصاغ هذا الجذر على وزن «افتعلت» الدال على
المطاوعة ومباشرة الفعل بجهد ذاتي، يتغير
المشهد بالكامل: لم تكن مريم مطرودة ولا
منبوذة من مجتمعها، بل هي التي مارست فعل
«النبد» على واقعها الأرضي، طارحةً خلف

ظهرها كل علائق الأنس البشري وروابط
القرابة والمألوف اليومي، كأنها تلقي بالعالم كله
في مدارك الإلغاء لتفرغ كليتها للقداسة.

ثم يأتي العدول في التنكير والوصف المكاني:
﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾. لم يُعرّف المكان، بل نُكِّرَ لينح
العزلة بعداً موحشاً شاسعاً؛ فالشرق هنا ليس
مجرد جهة جغرافية تستقبل أشعة الشمس
الصباحية، بل هو رمزٌ لبداية الانفلاق النوري،
ومسرح كوني متجرد من التفاصيل العمرانية.

إنها تعتزل الأهل لتواجه المجهول المطلق تحت
سماء مفتوحة، بعيداً عن الجدران والأبواب،
لتصبح الذات معلقة بين الأرض وخالقها.

الذهن لا يرى مجرد فتاة تنتحي جانباً، بل يرى
حركة انخلاع بطولية عن النسيج الإنساني؛ حجاباً
يتأسس في الفضاء، واستعداداً نفسياً وجسدياً
لمواجهة أمر لا طاقة للبشر باحتماله، وكأن صيغة
الافتعال رسمت خطأ فاصلاً قاطعاً بين تاريخ

مريم الفتاة التائبة في محرابها، ومريم الأم
الكونية التي ستحمل كلمة الله.

المبحث الثاني: العدول التركيبي والزمني وهندسة الإعجاز

المطلب الأول: تقرير الهوان الكوني أمام
الإرادة في ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ
عَلِيَّ هَيْنَ﴾

تقف مريم أمام بشارة الغلام مذهولة بكل
المقاييس البيولوجية والاجتماعية: ﴿أَنَّى يَكُونُ
لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ . إنه

المنطق البشري حين يصطدم بالمستحيل، حيث
تلتقي العفة الطاهرة بالاستحالة المادية. كان
المألوف في الرد على مثل هذا الهلع أن
يُستعرض سلطان الله بتقرير مظاهر الجبروت
وقدرته التي تخرق العادات وتهد الجبال، لكن
الجواب الإلهي جاء عبر مسار عدولي هادئ
وصادم في آن: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ
هِينَ﴾

العدول هنا يكمن في اختزال كل أسئلة الخلق،
والجينات، والتوالد، والنواميس التي أرساها
الخالق نفسه، في وصف مجرد واحد: ﴿هَيْئًا﴾.
هذا الانتقال من ضخامة المعجزة في عين المخلوق
إلى خفتها المطلقة عند الخالق يحدث خلخلة
إدراكية مذهلة. الصيغة لا تنفي صعوبة الحدث
على مريم، لكنها تحو مفهوم «الصعوبة» أصلاً
من قاموس الفعل الإلهي.

تكرار الفعل: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ يرسم
حركة انقطاع تام للجدل؛ فالكلمة الأولى للملك
المبْلَغ، والأخرى منسوبة مباشرة للرب، ليصبح
قوله ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيْنَ﴾ مسقطاً لكل ارتعاش
نفسي. الصورة الذهنية التي تستقر في روع
المتلقي ليست صورة معركة كبرى بين المشيئة
والناموس، بل صورة انسياب فائق؛ المعجزة
التي تزلزل فرائص التاريخ تقع عند الله بأيسر من
ارتداد الطرف، بلا تكلف، ولا مجهود، ولا

استثناء يتعب القادر. إنها إشارة واحدة تُؤخذ
بركان الدهشة، لتتحول مريم من حالة الرعب
الوجودي إلى سكون التسليم المطلق.

المطلب الثاني: صدمة التكلم وحسم القدر
من المهد في ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ
الْكِتَابَ﴾

حين أتت به قومها تحمله، كانت كل معطيات
المشهد تنذر بمحاكمة أخلاقية واجتماعية لا
ترحم: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ
سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾. التوتر يبلغ ذروته،
والتهمة تكاد تسحق صمت مريم التي نذرت
للرحمن صوماً. أشارت إليه، فجاء ردهم

مستنكراً، يفيض بالاستهزاء والاستحالة العقلية:

﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

هنا، يمارس النظم القرآني عدولاً زمنياً ودلالياً
يقلب المشهد رأساً على عقب؛ فبينما كان
السياق ينتظر صوتاً طفولياً أو تمتمة تُبَيِّنُ عن
براءة أمه فحسب، يقتحم الرضيع فضاء الحوار
ببيان لاهوتي كامل: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾.

العدول الأول يكمن في كسر أفق الانتظار
الحواري؛ لم يدافع عن مريم بكلمة، ولم يقل
«أمي بريئة»، بل بدأ بإعلان العبودية لله،
متجاوزاً محنة أمه الضيقة إلى حسم هويته
الوجودية الكبرى، فقطع الطريق على من
سيألمه لاحقاً، وأسقط تهمة القوم ضمناً،
فأرب لا يصطفي لحمل رسالته نتاج خطيئة.

العدول الثاني—وهو الأشد عمقاً—هو العدول
الزميني في قوله: ﴿آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

لقد استخدم الفعل الماضي («آتٍ»، «جَعَلَ»)
لوصف نبوة وكتاب لم يتنزلا عليه حسياً بعد،
وهو لا يزال ملفوفاً في خرق المهد. هذا التحول
من صيغة الاستقبال المحتمل («سيؤتيني»)،
«سيجعلني» إلى صيغة الماضي المنجز، ينقل
الصورة في وعي الحاضرين من حيز «الوعد
المعلق على الزمن» إلى حيز «القضاء المحسوم
المبرم في اللوح المحفوظ».

الصورة الذهنية المتشكلة في هذا المشهد هي
صورة الصمت الخاطف الذي يُلجم الضجيج؛
الجمع المحتشد المستفز، المشهر أسلحة العار، يتجمد
فجأة أمام طفل في قماطه ينطق بلسان القدر
الناجز، كأنما خرقت ستائر الزمن ليقف القوم
لا أمام رضيع بشري، بل أمام ناطق باسم
الغيب الأعلى.

المبحث الثالث: العدول الإيقاعي

والصوتي وتصوير الصدمة الكونية

المطلب الأول: النسق المديد الرحيم في

فواصل الرحمة والنجوى

تمضي سورة مريم منذ فاتحتها العجيبة

﴿كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا﴾

على مسار إيقاعي يمثل في ذاته حالة من النسيج

الصوتي الفائق اللطافة. الفواصل ثتوالى: (خَفِيًّا،
شَقِيًّا، وَلِيًّا، رَضِيًّا، سَمِيًّا، عَتِيًّا، سَوِيًّا، عَشِيًّا).

هذا النغم المناسب يتأسس على مدّ رخيم ينتهي
ببهاء مشددة مفتوحة مشفوعة بألف مقصورة
لينة. هذا التكوين الصوتي ليس تزييناً خارجياً،
بل هو تجسيد للمناخ الدلالي العام للسورة: مناخ
المحاريب الهادئة، الهمس بالدعاء، الدموع
المنهمرة في الخلوات، ونفحات الرحمة الإلهية
التي تنزل برداً وسلاماً على القلوب الواجفة.

إن هذه الفاصلة الرخوة ترسم صورة سمعية
لحركة الهواء العليل؛ فحين يدعو زكريا ﴿نِدَاءً
خَفِيًّا﴾، يأتي مدّ الفاصلة كأنه نفسٌ خافت
يصعد إلى السماء في ظلمة الليل دون أن يشوش
على سكون الكون. وحين تستسلم مريم لآلام
المخاض، تمتص الفاصلة اللينة آهات الضعف
البشري، لتشعر النفس بحنان الغيب وهو يحيط
بالمستضعفين ويحتضن انكسارهم. إن الصوت

هنا يبني «معبد السورة الروحي»، فضاءً آمناً
مفعماً بالرحمة، والاصطفاء، والسكينة.

المطلب الثاني: الارتجاج الجيولوجي والعدول الفاصلي الحاد

يستمر هذا التدفق الرحيم طوال ثلثي السورة،
حتى يظن القارئ أن هذا المعمار الصوتي
الهامس هو القانون الحاكم للنص كله، ولكن
فجأة، وحين يتحول السياق لمواجهة أشنع فرية
صاغها الوهم البشري في حق الألوهية: ﴿وَقَالُوا
اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، ينكسر النسق بضربة
واحدة في أفضع عدول إيقاعي في القرآن.

ينقلب الإيقاع الرقيق فوراً، وتهجم فواصل
قصيرة، مقطوعة، تنتهي بالذال المشددة والمقلقلة
المصحوبة بقرع مدوّ لا هواده فيه:

• ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾

• ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ

الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾

• ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾

هذا التحول الفاصلي المفاجئ يحدث رجّة هائلة
في الوعي السمعي والبصري للمتلقّي. حرف
الـدال المشدد المقلقل («إدّا»، «هدّا») يحمل في
مخرجه الصوتي كثافة تصادمية، يشبه ارتطام
صخرة عملاقة بأرض صلبة بعد سقوط حر.

الصورة الذهنية المتولدة عن هذا العدول ليست
فكرة ذهنية عن بطلان الشرك، بل هي زلزال
كوني مشهود. يرى الخيال قباب السماوات
الزرقاء وهي تتصدع، والأرض الصلبة وهي

تنشق وتتباعد أطرافها، وشم الجبال الرواسي
وهي تنهار متفتتة إلى حطام وغبار متصاعد
(«هداً»).

العدول الصوتي هنا حوّل الكلمة الشريكة إلى
كتلة جاذبية مدمرة لا يطيق الوجود حملها،
فالكون الذي كان قبل لحظات هادئاً، يتنزل
فيه الروح الأمين بالسلام، ينتفض بكل أجرامه
كائناً حياً يغضب لربه ويوشك أن يدمر نفسه
حنقاً على هذه المقولة. وحين يعود النظم لاحقاً

إلى هدوئه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ، يدرك القارئ
أن العدول الصوتي كان بمثابة «صاعقة بيانية»
استأصلت الباطل في مشهد قياسي مصغر، لتظل
الألوهية وحدها في عليائها منزهة عن النقص
والشريك.

[الخاصة]

تنتهي هذه المقاربة التحليلية لسورة مريم إلى
تقرير حقيقة بيانية ومنهجية جوهريّة: إن
«العدول» في النظم القرآني ليس خروجاً عن
نسق لغوي بقصد التزييق الشكلي، ولا حيلة
بلاغية تلمس الغرابة، بل هو «لغة الموقف
القصوى» التي لا تنهض بها الصيغ التقريرية
المعيّارية.

تبلور أهم النتائج المستخلصة من هذه القراءة في
النقاط الآتية:

• العدول كطاقة تجسيد بصري: برهن التحليل
الإسنادي والصرفي في ﴿وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾
و﴿فَانْتَبَذَتْ﴾ على أن الانزياح التركيبي يحول
المعنى المجرد إلى حركة درامية محسوسة؛
فالشيب ليس تغيراً في اللون بل حريق يلتهم
الفناء، والاعتزال ليس مجرد بعد مكاني بل
انخلاع كلي عن نسيج العالم تمهيداً لحمل الرسالة.

• السيولة الزمنية وحسم القدر: كشف فخص
الأفعال الماضية الدالة على المستقبل في نطق
الرضيع ﴿آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ عن قدرة
العدول الزمني على نقل الحدث من فضاء
«الترقب الإنساني المألوف» إلى دائرة «القضاء
الإلهي المبرم»، مما أحدث صدمة إدراكية
ألجمت الخصوم وحسمت المعركة العقيدية في
المهد قبل بدئها.

• التوافق الصوتي والمعماري مع المقصد
السوراتي: أبان الانتقال الإيقاعي المفاجئ من
الفواصل الرخية المدودة (خَفِيًّا، وَلِيًّا) إلى
الفواصل المشددة المقلقلة (إِدًّا، هَدًّا) أن
الإيقاع الصوتي في القرآن ليس قلباً خارجياً
للفظ، بل هو كائن حي يتنفس دلالة؛ يهمس
حين تنزل الرحمة، ويرتطم بالأكوان كالصاعقة
الجيولوجية حين يُمسُ جناب التوحيد.

الباب الثاني: فقه العدول وتحولات

الصيغة في سورة طه

[المقدمة]

ينزل الخطاب القرآني على القلب البشري لا
ليكون تراكيب مجردة، بل طاقة تشكيلية تعيد
بناء الإدراك وتوجه الوعي؛ إذ تمثل كل صيغة
لغوية زاوية نظر محددة يكتمل بها المشهد في عين
البصيرة. وإذا كان «العدول» في الدراسات

الأسلوبية انزياحاً عن القياس المألوف، فهو في
نسق التنزيل «هندسة دلالية متعالية» تستنفر
خيال المتلقي ليرى الفكرة متجسدة في حركة،
ولون، وحرارة، وصوت.

تُفرد سورة طه بمناخ إيماني ورسالي محكم؛ إذ
تُفتح بحسم علة التنزيل وغايته الكبرى: ﴿مَا
أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، ثم تنطلق لتعالج
مواقف الرهبة، والتكليف، ومنازلة الطغيان في
أعتى صوره، ومكافحة الانتكاس القيمي في غيبة

المصلحين. ومن ثمّ، فإنّ تحولات الصيغة في
السورة—سواء كانت صرفية تنقل المشاعر، أو
إسنادية تجرد الأشياء من هيبتها الزائفة، أو
صوتية تفتح آفاق المدى—لا تعمل إلا على
تفكيك الشقاء وثبيت الفؤاد، ورسم حركة
المعجزة والمواجهة كواقع حي ماثل أمام وعي
المتلقي.

[إشكالية البحث وتساؤلاته]

تنطلق الدراسة من السؤال المركزي:

« كيف يسهم العدول النظمي والصيغي في سورة طه في تشكيل الصورة الذهنية وتحرير الوعي الإنساني من سطوة الخوف والشقاء؟ »

ويتفرع عنه:

١. كيف يعبر العدول الصرفي في مفردة الرؤية (آلَسْتُ) عن تبديد الوحشة واستئناس الروح بالتكليف؟

٢. بأي آلية يصنع العدول عن التشبيه في انقلاب العصا إلى حية صدمة بصرية تؤسس لإعادة بناء شجاعة النبي؟

٣. ما دلالة التعدية الزائدة وشبه الجملة (لي) في رسم عمق الفقر الوجودي في مواجهة الطغيان؟

٤. كيف يسهم العدول التصويري والحصري في تجريد السحر من هالته الأسطورية إلى ميكانيكا «الصنعة» الهشة؟

٥. كيف تخدم الفاصلة المفتوحة الممتدة (الألف المقصورة) فضاء المواجهة الشاملة ونفي الانكسار؟

المبحث الأول: العدول الصرفي

والإسنادي وتطويع الرهبة الوجودية

المطلب الأول: استئناس الوحشة وتوهم

الحقيقة في ﴿إِنِّي أَنْتُ نَارًا﴾

في ليلة باردة وسط فيافي سيناء الموحشة، حيث
يسير موسى بأهله تائهاً في الظلام، كان التعبير
المعياري المألوف يقتضي استخدام أفعال
الإبصار الحسي كأن يقال: «إني رأيتُ ناراً»، أو

«أَبْصَرْتُ ضَوْءًا». لكن السياق القرآني يعدل
عن الرؤية المجردة إلى صيغة مشتقة من
«الأنس»: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾.

هذا الانزياح اللفظي ينقل بؤرة التركيز من
العين إلى القلب؛ فالإيناس ليس مجرد التقاط
بصري لشعاع ضوئي، بل هو تبدد للخوف
وحلول للأمان في النفس الواجفة. العدول هنا
يرسم للمتلقي مشهد البرد القارس والظلمة
والوحشة التي كانت تحاصر الأسرة، ثم يباغت

ذلك بنور ينفذ إلى روع موسى كدفٍ روجي
قبل أن تصل قدماه إلى موقعه.

الصورة الذهنية المتشكلة ليست صورة مسافر
يبحث عن حطب جاف يوقده، بل صورة إنسان
استأنس بنور الغيب دون أن يدري، حيث
تحولت النار في إدراكه من مادة إحراق إلى
موطن طمأنينة وهداية. بهذا العدول الصرفي
البارع، تهيأ النفس البشرية للانتقال من وحشة
الصحراء إلى قداسة الوادي طوى، حيث

تنكشف حقيقة النار كبوابة لأجل حوار بين
الخالق والمخلوق.

المطلب الثاني: الصدمة البصرية وإلغاء التشبيه في ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾

عندما طُلب من موسى إلقاء عصاه، كان المعهود في التصوير الأدبي تقريب الصورة عبر أداة التشبيه لتقليل وقع المفاجأة، كما جاء في مواضع أخرى بمقام مختلف: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ حيث وُصفت الحركة والسرعة. أما في سورة طه، فالنظم القرآني يمارس عدولاً صريحاً بإسقاط أي تشبيه أو مقارنة، مستخدماً

«إذا» الفجائية مقرونة بالاسم العيني الصريح
والفعل الحركي المباشر: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ
تَسْعَى﴾.

هذا العدول عن التشبيه يجسد اللحظة الصفيرية
للانقلاب الفيزيائي؛ فالخيال البشري لا يرى
خشبة يابسة تهتز بما يشبه الأفعى، بل يعاين
جماداً تحول فجأة بكيته إلى كتلة لحم ودم،
كائن حي يزحف بضخامة وسرعة باغتت
الحواس.

تكتمل الصورة الذهنية في ذهن المتلقي حين
يتبع هذا المشهد الصادم أمرٌ يخالف الغريزة
الإنسانية: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا
الأُولَى﴾. العدول عن التلطيف التشبيهي
أحدث الصدمة الكاملة ليصنع من خلالها
التدريب النفسي الأعظم؛ إذ كان لازماً على
موسى أن يرى المستحيل الحسي رأي العين
ويجتازه بلمس الحية بيده، حتى تنهار في وعيه

سطوة الخوف الطبيعي قبل أن يواجه سطوة
فرعون وجبروته.

المبحث الثاني: العدول التركيبي وهندسة المواجهة مع الباطل

المطلب الأول: الاستغراق الوجودي في
طلب المعونة ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾

حين يُكلف نبي بمواجهة أعتى عروش الأرض:
﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، ترتعد الجبلية
البشرية تحت وطأة هذا العبء الهائل. كان
يكفي في لغة الطلب القياسية أن يقول: «رب

اشرح صدري»، لكن النظم القرآني يكرر شبه
الجملة في موقعين متتاليين: ﴿رَبِّ اشرح لي
صَدْرِي * وَيَسِّرْ لي أَمْرِي﴾.

العدول هنا يكمن في إقحام اللام الدالة على
الاختصاص والاستغراق ﴿لي﴾؛ وهي ليست
فضلة نحوية، بل بؤرة دلالية تكشف عن حجم
الفاقة الذاتية. إن مهمة منازلة الطغيان تقتضي
اتساعاً نفسياً يفوق طاقة البشر المعتادة؛ فالصدر
المطلوب ليس مجرد انشراح عارض، بل صدر

يتسع خصوصاً لحمل أثقال الدعوة، واستيعاب
جهل الخصوم، ومكابدة صدمات التكذيب.

الصورة الذهنية المتولدة ليست صورة دعاء
تقليدي، بل مشهد عبدٍ يفرغ ذاته تماماً من أي
ادعاء للقوة، ويطلب أن تُفيض عليه يد القدرة
الإلهية سَكينة خاصة به، تُسكن ارتعاش فؤاده
وتطوعه لمجابهة صلف القصور الفرعونية. التكرار
في ﴿إِلِي﴾ يرسم خطأً دقيقاً بين عجز الذات
المجردة واقتدارها حين نتصل بمدد خالقها.

المطلب الثاني: التفكيك الحصري لأسطورة السحر في ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾

في يوم الزينة، والجموع محتشدة، ألقى السحرة
حبالهم وعصيمهم فتحولت الساحة إلى بحر من
التخييل الذي أوجس منه موسى في نفسه
خيفة. في سياقات أخرى كالأعراف، جاء
التعبير القرآني فاضحاً للباطل في صورته الزائفة:
﴿تَلَقَّفْ مَا يَأْفِكُونَ﴾، أما في سورة طه فيعدل

التعبير إلى تفكيك جوهر الفعل: ﴿وَأَلْقَ مَا فِي
يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ﴾ .

طبيعة العدول هنا تنقسم إلى شقين:

١. استبدال الإفك بلفظ ﴿صَنَعُوا﴾؛ وهو

انزياح يسلب المشهد هيئته الخارقة، وينزل به من

مصاف القوى الميتافيزيقية المربعة إلى مستوى

«الصناعة البشرية الميكانيكية»، حيلة يدوية

وتكنيك مسرحي صُنع في ورش السحرة ولا
حياة فيه.

٢. أداة الحصر والتقليل ﴿إِنَّمَا﴾ وإضافة الكيد
إلى المفرد المنكر ﴿سَاحِرٍ﴾؛ ليتحول الجمع الحاشد
وكيدهم المتراكم في خيال الناس إلى مجرد
مكيدة ضعيفة يفتعلها ساحر بائس.

الصورة الذهنية التي يبنها هذا العدول تسحق
الرعب في عين الرائي؛ فالعصا التي في اليمين حين

تتحول وتبتلع ما ألقوه عبر الفعل ﴿تَلَقَّفْ﴾ ، لا
تصارع معجزة مقابلة، بل تبتلع «أوهاماً
مصنوعة»، وتكشف زيف الهالة الأسطورية
أمام حقيقة الفعل الإلهي الواحد القاهر،
فيسقط السحرة سجداً بعد أن تحطمت صنعهم
في لحظة واحدة.

المبحث الثالث: العدول الإيقاعي

والصوتي وثبتت أركان الوعي

المطلب الأول: فضاء الفاصلة المفتوحة

(الألف المقصورة) وتصفية الشقاء

تلتزم سورة طه معماراً صوتياً متصاعداً ينساب

بإيقاع موحد ينتهي بالألف المقصورة المسبوقة

بفتحة: (لِتَشْقَى، اسْتَوَى، الثَّرَى، يُخَفَى،

الْحُسْنَى، مُوسَى، نَارًا، الْهُدَى).

هذا التدفق الصوتي الحازم يمثل عدولاً تاماً عن
فواصل الهمس الرخوة والرجاء الباكي التي
شاعت في سورة مريم (خَفِيًّا، وَلِيًّا، رَضِيًّا).
فالصوت هنا مفتوح نحو الأفق، ممتد في فضاء
الكون، لا يعرف الانكسار ولا يضيق
بالهمس.

الصورة الذهنية المتشكلة من هذا الإيقاع هي
صورة الفضاء الشامل الذي تتبدد فيه الكروب،
فالألف المقصورة بحركتها المرتفعة نحو السماء

تعبّر عن ثبات الدعوة، واستقرار الإرادة الإلهية
فوق العرش: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾،
وتردد صدى الأوامر الرسالية في بطاح
الأرض. إن هذا النسق الصوتي المديد يعيد
برجة النفس السامعة: فما دام القرآن نزل من
لدن من له ما في السماوات وما في الأرض
وما بينهما وما تحت الثرى، فإن مساحة الشقاء
قد أغلقت تماماً، ولم يبقَ إلا وضوح الحق
وارتفاعه.

المطلب الثاني: العدول في مشهد نفس الوهم (العجل والسامري)

تجلى ذروة الحسم البياني والصوتي حين يواجه
موسى انحراف قومه وصناعة العجل الجسد ذي
الحوار؛ إذ لا يقف الخطاب عند التنديد
اللفظي، بل يعتمد النظم ألفاظاً ذات وقع
صلب وتكرار صوتي قاطع: ﴿وَانْظُرْ إِلَىٰ إِهْلِكَ
الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي
الْيَمِّ نَسْفًا﴾.

العدول هنا يتأسس على استخدام المفعول
المطلق المؤكد ﴿نَسَفًا﴾ بعد التضعيف في
﴿لَنَحْرِقَنَّهُ﴾؛ ليصنع في الأذن ارتداداً حركياً
يحاكي التفتيت الشامل.

الصورة الذهنية المتشكلة في هذا المطلب هي
صورة التحول من «صنم مألوه» يعكف عليه
الجمع في ضلالتهم، إلى «هباء منشور» تذروه
الرياح وتلتهمه لجج البحر. العدول الإسنادي في
تسميته ﴿إِلْهَكَ﴾ على سبيل السخرية من عقل

عابده، ثم تدميره بالفعل والنسف التام، يحو
الأسطورة مادياً وبصرياً، فلا يبقى للعجل أثر،
ولا للسامري سلطان، ليعود فضاء التوحيد نقياً
كما كان، وتستقر حقيقة: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

[الخاصة]

تخلص هذه الدراسة إلى أن «فقه العدول» في سورة طه يمثل ركيزة مركزية في بناء الخطاب القرآني الموجه لتبديد الشقاء وثبت اليقين؛ فالتحولات الأسلوبية والصرفية والإيقاعية لم تكن ترفاً بيانياً، بل مساراً تصويرياً دقيقاً استهدف:

- تحويل المشاعر الإنسانية من الوحشة والتردد إلى الأُنس والتسليم عبر دقة التعبير الصرفي.
- نزع المهابة الزائفة عن قوى الطغيان والسحر وردّها إلى حجمها البشري المصنوع المفتقر للحياة.
- إرساء فضاء صوتي مفتوح يتناغم مع طمأنينة الاستواء الإلهي وعلو كلمة الحق فوق عوارض الزمان.

الباب الثالث: فضاء الرأفة ومدار المواجهة

دراسة مقارنة في فقه العدول بين سورتي مريم وطه

تمثل سورة مريم وسورة طه نموذجين متجاورين في المصحف الشريف، يتكاملان في بناء الوعي الإنساني؛ فبينما تنزل سورة مريم لتداوي انكسار الذات في خلواتها ومحاريبها عبر ثيمة «الرحمة والاستكانة والنجوى»، تنهض سورة طه لتنتشل الإنسان من وهدة الضعف إلى

ميادين التكليف والمجاهدة تحت مظلة «نفي
الشقاء، وثبیت الفؤاد، والمواجهة العريضة».

إن تباین هذين المقصدين لم ينعكس على المعاني
الكلية فحسب، بل تجسد جوهرياً في «فقه
العدول»؛ حيث صُممت التحولات الأسلوبية
والصوتية والصرفية في كل سورة لتؤسس فضاءً
نفسياً يخدم غايتها الوجودية.

أولاً: العدول الإيقاعي والصوتي (بين رقة الهمس وانفتاح المدى)

• في سورة مريم (فضاء النجوى والمحاريب):
اعتمد النظم عدولاً صوتياً ينحاز إلى الفاصلة
الرخوة المنتهية بالياء المشددة والألف اللينة
الممدودة: (خَفِيًّا، وَلِيًّا، شَقِيًّا، رَضِيًّا). هذا
الانسداد النغمي يحاكي خفوت الصوت،
وتصاعد أنفاس الضراعة، ودموع الخلوات في
عتمة الليل؛ فالصوت هنا مكسور بالرجاء،

يَمْتَصُّ آلامَ الشَّيْخُوخَةِ وَمَخَاضَ الْعِزَّةِ، حَتَّى إِذَا
مَا طَرَأَ الشَّرْكَ انْكَسَرَ الْإِيقَاعُ فَجْأَةً بَعْدَ
صَدْمِي حَادٍ (إِدَاءً، هَدًّا) لِيُعلنَ انْتِفَاضَةُ الْكُونِ.

• فِي سُورَةِ طه (فِضَاءِ الْأَفْقِ وَثَبَاتِ الْإِسْتَوَاءِ):

عُدْلٌ بِالْفَاصِلَةِ كَلِيًّا عَنِ الْيَأْسِ وَالْكَسْرِ، لِتُسْتَقَرَّ

السُّورَةُ عَلَى الْأَلْفِ الْمُقْصُورَةِ الْمَفْتُوحَةِ: (لِتَشَقَّ،

اسْتَوَى، الثَّرَى، مُوسَى). الْفَتْحَةُ الْمُتَصَاعِدَةُ نَحْوَ

الْأَعْلَى تَمْنَحُ النَّفْسَ انْشِرَاحًا صَوْتِيًّا، وَتَوْسَسُ

لِصَدْيٍ مُمْتَدٍّ يَمْلَأُ بَطَاحَ سِينَاءٍ وَقُصُورَ الْفِرَاعِنَةِ

وميادين السحر. الإيقاع هنا لا يهمس في زاوية
محراب، بل يصدح في فضاء مكشوف، نافياً
أدنى أثر للشقاء، ومثبتاً أقدام الواقفين أمام
الجبروت.

ثانياً: العدول الصرفي في معاينة النور والنار (تفاوت الحالة الشعورية)

تجلى المقارنة بوضوح في التقاط النظم لحركة
الحواس في مواجهة الغيب:

• في مريم (انكسار الحواس أمام الوهن):

ينعكس العدول الصرفي في تجسيد العجز

البشري المحض؛ فالشيب لا يئمو، بل ﴿اشْتَغَلَ

الرَّأْسُ شَيْبًا﴾، والمكان ليس جهة بل ﴿مَكَانًا

شَرْقِيًّا ﴿عبر صيغة الافتعال﴾ ﴿فَانْتَبَذْتُ﴾ .

الصرف هنا يكرس الانطواء الذاتي، والانخلاع
عن صخب الوجود طلباً لكنف الرحمة الإلهية.

• في طه (تحفز الحواس ومباشرة الرسالة):

يتحول المشهد إلى الحركية واليقظة؛ فموسى لا

يقول «رَأَيْتُ نَارًا»، بل ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ عبر

صيغة تفصح عن استئناس النفس بالضوء قبل

بلوغه، ثم يتبعها فوراً بطلب فاعل: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ

مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ . العدول

الصرفي هنا ينزع رداء الوحشة ويزرع بدلاً منه
روح الاستكشاف والتكليف، ممهداً لتلقي
الألواح ومواجهة الطغيان.

ثالثاً: العدول الإسنادي والتركيبي (بين

طمأنة الهوان وحسم الصدام)

وجه المقارنة: طبيعة المعجزة

سورة مريم (ثيمة الرحمة والسكينة): انسيابية، هادئة، داخل
رحم نقي: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيَّ هِينٌ﴾؛ اختزال
القدرة في نفي الصعوبة والتلطف بالمرأة العذراء.

سورة طه (ثيمة تثبيت الفؤاد والمواجهة): صدمة مباغطة بلا
تلطيف تشبيهي: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ ثم أمر بمباشرتها
باليد: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ لكسر حاجز الرعب الفطري.

وجه المقارنة: منطق الحوار

سورة مريم (ثيمة الرحمة والسكينة): كسر الحوار بصوت الرضيع: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾؛ عدول لإلجام بهتان القوم بالبراءة الصامتة والإقرار بالعبودية.

سورة طه (ثيمة تثبيت الفؤاد والمواجهة): تفكيك كبرياء الفرعون بحرف الخطاب: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، وطلب الشرح التام: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ لمنازلة الطغيان عيناً بعين.

وجه المقارنة: مصير الباطل

سورة مريم (ثيمة الرحمة والسكينة): باطل كلامي وادعاء مجرد يُرد بالإنكار الكوني: ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾؛ فتكاد السماوات تنفطر غضباً للمقام العلي.

سورة طه (ثيمة تثبيت الفؤاد والمواجهة): باطل حركي مجسد (سحر وعجل) يُرد بالتحقير الحصري: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ﴾، ثم النفس الفيزيائي المادي: ﴿لَنَحْرِقَهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾.

رابعاً: البناء التكاملي للوعي القرآني بين السورتين

يكشف هذا التقابل الأسلوبي أن القرآن الكريم يعالج النفس الإنسانية في دائرتين لا غنى لإحدهما عن الأخرى:

• دائرة الاستمداد الداخلي (مريم): حيث يتخفف الإنسان من أثقاله، ويعترف بهشاشته ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾، ويلوذ بانتبازه ومحرابه،

مستمطراً سحائب الرحمة الغيبية التي تهب الولد
من غير أب وتفجر الماء من تحت الأقدام.

• دائرة الفاعلية الخارجية (طه): حيث ينزل
الإنسان المتطهر بالرحمة إلى معترك الحياة،
مستصحباً يقين ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾،
ليبدد سحر الزيف، ويسقط عروش المستبدين،
واثقاً بأن حبال الباطل ليست إلا صناعة هشة
تبتلعها يد الحق.

وهكذا، يظل «فقه العدول» هو المهندس الخفي
الذي ينسج ثياب العبارة لتوافق نبض الموقف؛
فإذا كانت الرحمة والرجاء، لأن الحرف ورقت
الفاصلة، وإذا كان التكليف والمجابهة، استوى
النظم وتصلبت الصياغة، ليبقى التنزيل العزيز
معجزاً في دقائقه وأسرار تراكيبه.